

الحمدُ للهِ ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: 5]، قسَّمَ عبادَه إلى مُؤمنٍ وكافر، وعلى الله قصدُ السبيلِ ومنكم جائر، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له الملكِ العزيزِ القاهر، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسوله أتقى مأمورٍ وأهدى آمر، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، أُولي الألباب والبصائر، وعلى التابعين لهم بإحسانٍ ما آمنَ بالحقِّ مُوقنٌ وشكَّ فيه حائرٌ، وسلَّم تسليماً.

**أما بعد:**

إخوة الإيمان في ليلة السبت الماضية حدث حدثُ شاهده العالم بأكمله ألا وهو خسوف القمر وأطلق عليه الخسوف الدموي وذلك لظهور القمر على هيئة قرص أحمر وكان الأطول كما قرر ذلك العلماء .............................

ولكن هناك خسوف وكسوف لا يلتفت إليه كثير من الناس، خسوف داخلي في أشرف مكان في قلب الإنسان، فالقلب ملك الأعضاء وعليه مدار سعادة المرء في الدنيا والأخرة

والقلب قد تشرق جوانبه ويصبح كالشمس في وسط النهار وذلك بالإيمان والطاعة وذكر الله تعالى

وقد يحجب عنه النور فيظلم ظلام الليل الدامس بسبب الشرك أو الشبهة أو كثرة الذنوب والمعاصي يقول الله تعالى (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) (المطففين))

أي غطى على قلوبهم ما كانوا يكسبونه من الإثم والمعصية. والقلب الذي يمرد على المعصية ينطمس ويظلم؛ ويرين عليه غطاء كثيف يحجب النور عنه ويحجبه عن النور، ويفقده الحساسية شيئاً فشيئاً حتى يتلبد ويموت. .

إن العاصي يجد ظلمةً في قلبه ، يُحس بها كما يحس بظلمة الليل ، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره ، فإن الطاعة نور ، والمعصية ظلمة ، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر ، كأعمى خرج في ظلمة الليل يمشي وحده ، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين ، ثم تقوى حتى تعلو الوجه، وتصير سواداً يراه كل أحد . قال عبد الله بن عباس : " إن للحسنة ضياءً في الوجه ، ونوراً في القلب ، وسعةً في الرزق ، وقوةً في البدن ، ومحبةً في قلوب الخلق ، وإن للسيئة سواداً في الوجه ، وظلمةً في القلب ، ووهناً في البدن , ونقصاً في الرزق ، وبغضةً في قلوب الخلق " .

وظلمة القلب من معانيها هي عدم التوفيق والتخبط في حياته الدنيا في عمله ووظيفته وتربيته لأولاده وتعسير أموره عليه، فلا يتوجه لأمرٍ إلا ويجده مغلقاً دونه أو متعسراً عليه، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسرا كما قال ربنا عز وجل ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ \* يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: 15، 16].

فهذا هو التوفيق الذي يناله صاحب الحسنة والضلال والتخبط الذي ينال صاحب السيئة.

﴿ اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: 257]

**أسباب خسوف القلب:**

اعلم بارك الله فيك: أن لخسوف القلب أسباب عديدة تجعله كالليل البهيم لا يرى فيه إلا هواه ونزواته فلا يفرق بين ما ينفعه وما يضره ولا بين الحق والباطل وهاك بيانها بحول الله تعالى وطوله:

**أولا: الشرك والنفاق**

فالشرك والنفاق سبب من أخطر الأسباب التي تخسف القلوب وتجعل الظلمة تطبق عليها عن ابن عباس أن الظلمة ظلمة الشرك والنفاق، والنور نور الإسلام واليقين،

قال الله تعالى {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: 17 - 20]

يقول الشيخ محمد رشيد رضا- وقال شيخنا في تطبيق المثل على اليهود وأمثالهم من هذه الأمة ما معناه : استوقدوا بفطرتهم السليمة نار الهداية الإلهية بتصديقهم ، فلما أضاءت لهم بروقها ووضح لهم طريقها ، فاجأتهم التقاليد الموروثة ، وباغتتهم العادات المألوفة ، وشغلهم ما يتوهمونه فيها من المنافع والفوائد ، وما يتوقعونه في الإعراض عنها من المصارع والمفاسد عن الاستعانة بذلك الضوء على سلوك ذلك الصراط المستقيم ، والتفرقة بين نهاره المشرق وظلمات ليلها البهيم ، بل استبدلوا هذا الديجور بذلك الضياء والنور ، وهذا هو معنى ذهاب نورهم ، وإنما قال : (ذهب الله بنورهم) ولم يقل : ذهب نورهم ، أو أذهب الله نورهم ، للإشعار بأن الله تعالى كان معهم بمعونته وتوفيقه عندما استوقدوا النار فأضاءت ، وذلك أنهم كانوا قائمين على سبيل فطرته التي فطر الناس عليها ، معتقدين صحة شريعته التي دعا الناس إليها ، وبأنه تخلى عنهم عندما نكبوا عن تلك السبيل ، وعافوا ذلك المورد السلسبيل .

ولا شك أن المستوقد المسترشد تكون له حالة مع الله تعالى مرضية في التوجه إليه وقصد اتباع هداه، والاستضاءة بنوره الذي وهبه إياه، فإذا أعرض عنه وكله الله إلى نفسه وذهب بنوره، وإذا ذهب النور لا يبقى إلا الظلمة ، وما كان هؤلاء في ظلمة واحدة ولكنها ظلمات بعضها فوق بعض ، متعددة بتعدد أنواع التقاليد التي فتنوا بها ، وبتعدد أنواع الهداية التي أعرضوا عنها ([[1]](#footnote-1))

**ثانيا: كثرة الذنوب والمعاصي**

و مما يورث الظلمة و خسوف نور القلب كثرة الذنوب و المعاصي وركوب بحر الشهوات و النزوات

وروي الحاكم في مستدركه وحسنه الألباني من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلي الله عليه وسلم قال " إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم "

قال الإمام ابن المبارك:

رأيتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ وقد يورثُ الذّل إدمانُهَــا

وتركُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ وخَيْرٌ لِنَفْسِـكِ عِصْيَانُهَـا

**ثالثا: إطلاق النظر إلى ما حرم الله تعالى**

من أسباب خسوف القلب فضول النظر و كما جاء في الحديث و إن كان فيه ضعف: ((والنظر سهم مسمون من سهام إبليس، فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه )) ([[2]](#footnote-2)).

وقال تعالى: {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ

((وإطلاق البصر يلبس القلب ظلمة، كما أن غض البصر لله عز وجل يلبسه نــورًا، وقد ذكـــر الله عز وجل آية النور ( الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ) بعد قوله { قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ }

وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية، كما أنه إذا أظلم أقبلت إليه سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان )) .

فمن غض بصره عن الحرام نور الله بصيرته، ومن أطلق نظره في الحرام أعمى الله بصيرته وأمرض قلبه عياذًا بالله.

**رابعا: مخالطة أرباب الذنوب والمعاصي**

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض، تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة، ويعض المخلط عليها يديه ندما، كما قال تعالى: { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً ، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي } [الفرقان:27-29] وقال تعالى: { الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ } [الزخرف:67]، وقال خليله إبراهيم لقومه: { إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ } [العنكبوت:25]، وهذا شأن كل مشتركين في غرضك يتوادون ما داموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض، أعقب ندامة وحزناً وألماً وانقلبت تلك المودة بغضاً ولعنة، وذماً من بعضهم لبعض.

**خامسا: أكلُ الحرام**

اعلموا أن صلاح القلوب لا يكون إلا بصلاح المطعم و المشرب لذا فالنبي - صلى الله عليه وسلم يوضح لنا أن صلاح الأعضاء بصلاح القلوب و صلاح القلوب بصلاح المطعم و المشرب عَنْ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " الحَلاَلُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ".([[3]](#footnote-3))

قال ابن حجر رحمه الله: «فيه التنبيه على تعظيم قدر القلب والحث على صلاحه والإشارة إلى أن لِطيب الكسب أثرًا فيه» [فتح الباري]. «سُئِل الإمام أحمد رحمه الله: بِمَ تلين القلوب؟ قال: بأكل الحلال». ([[4]](#footnote-4))

فالقلب إذا امتلأ بالحرام، انغلق عن المعنويات، وأوصدت نوافذ الهداية فيه، فالابتعاد عن الحق وهجران الإنسان لبارئه واقترافه المعاصي والتعدي على حقوق الناس، مقدمة طبيعية تقود إلى ظلمة القلب، إذْ إن من جملة الأسباب الرئيسة لعدم توطين النفس للحق وعدم اتباع الصراط السوي، أكل المال بالباطل، فالأموال التي يحصل عليها بطرق غير مشروعة وأسباب غير مرضية عند الله تعالى، تطبع على القلب بظلمتها.

قال بعض السلف: إن العبد يأكل أكلة فيتقلب قلبه فينغل كما ينغل الأديم ولا يعود إلى حاله أبدا.

**أَكلُ الخَبيثِ بِهِ تعمى القُلوبُ فَلا ♦♦♦ تُحَدِث بِها ظُلمَةً تَفضي إلى كلَلِ**

فعن أبي حفص عمر بن صالح الطرسوسي قال:

"ذهبت أنا ويحيى الجلاء إلى أبي عبد الله فسألته، فقلت: رحمك الله يا أبا عبد الله بم تلين القلوب؟! فأبصر إلى أصحابه فغمزهم بعينه، ثم أطرق ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: يا بني بأكل الحلال، فمررت كما أنا إلى أبي نصر بشر بن الحارث، فقلت له: يا أبا نصر! بم تلين القلوب؟! قال: ألا بذكر الله تطمئن القلوب.

قلت: فإني جئت من عند أبي عبد الله، فقال: هيه... إيش قال لك أبو عبد الله؟! قلت: بأكل الحلال، فقال: جاء بالأصل، فمررت إلي عبد الوهاب بن أبي الحسن، فقلت: يا أبا الحسن! بم لين القلوب؟! قال : ألا بذكر الله تطمئن القلوب، قلت: فإني جئت من عند أبي عبد الله، فاحمرت وجنتاه من الفرح، وقال لي: إيش قال أبو عبد الله؟! قلت: قال بأكل الحلال، فقال: جاءك بالجوهر.. جاءك بالجوهر، الأصل كما قال، الأصل كما قال"

خرج الأمير شروان للصيد فأدركه العطش فرأى في البرية بستاناً وعنده صبي فطلب منه ماء فقال ليس عندنا ماء قال ادفع لي رمانة فدفعها إليه فاستحسنها فنوى أخذ البستان ثم قال ادفع لي أخرى فدفع له أخرى فوجدها حامضة فقال أما هي من الشجرة الأولى قال نعم قال كيف تغير طعمها قال لعل نية الأمير تغيرت فرجع عن ذلك في نفسه ثم قال ادفع لي أخرى فدفع له أخرى فوجدها أحسن من الأولى فقال كيف صلحت قال بصلاح نية الأمير ([[5]](#footnote-5))

**أسباب إشراق نور القلب وزوال خسوفه**

**إخوة الإيمان: بعدما بينا لكم أسباب خسوف القلب وزوال نوره نقف الأن مع أسباب إشراقه ونوره كما أرشدنا من بيده الرشد سبحانه وتعالى**

**الأول: التوحيد**

وعلى حسب كماله وقوته وزيادته نور القلب و إشراقه. قال الله تعالى: {أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ } [الزمر:22].

يقول سيد قطب-وهذه الآية تصور حقيقة القلوب التي تتلقى الإسلام فتنشرح له وتندى به . وتصور حالها مع الله . حال الانشراح والتفتح والنداوة والبشاشة، والإشراق والاستنارة . كما تصور حقيقة القلوب الأخرى في قساوتها وغلظتها وموتها وجفافها ، وعتمتها وظلامها . ومن يشرح الله صدره للإسلام ويمد له من نوره . ليس قطعاً كالقاسية قلوبهم من ذكر الله . وشتان شتان بين هؤلاء وهؤلاء .([[6]](#footnote-6))

وقال تعالى: { فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء } [الأنعام:125].

فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحراجه

**ثانيا: الاستضاءة بنور العلم**

أن يعلم أن العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده، فهو فضل وفهم يؤتيه الله من يشاء، قال مالك رحمه الله: ليس العلم بكثرة الرواية ولكنه فهم ونور يؤتيه الله من يشاء.

شَكَوْتُ إلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي فَأرْشَدَنِي إلَى تَرْكِ المعَاصي

وَأخْبَرَنِي بأَنَّ العِلْمَ نُورٌ ونورُ الله لا يهدى لعاصي

فالعلم يشرح الصدر ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا، والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس، فكلما اتسع علم العبد انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل علم، بل للعلم الموروث عن الرسول وهو العلم النافع، فأهله أشرح الناس صدرا، وأوسعهم قلوبا، وأحسنهم أخلاقا، وأطيبهم عيشا

العلم نور والجهل ظلام , والعلم مفتاح الحياة , وشمعة تضيء لنا دروبنا

**ثالثا: ذكر الله نور القلوب**

يقول ابن القيم –رحمه الله- أن الذكر نور للذاكر في الدنيا ونور له في قبره ونور له في معاده يسعى بين يديه على الصراط فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى قال الله تعالى : {وَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [الأنعام: 122] فالأول هو المؤمن استنار بالإيمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره والآخر هو الغافل عن الله تعالى المعرض عن ذكره ومحبته والشأن كل الشأن والفلاح كل الفلاح في النور والشقاء كل الشقاء في فواته ولهذا كان النبي صلى الله عليه و سلم يبالغ في سؤال ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعله في لحمه وعظامه وعصبه وشعره وبشره وسمعه وبصره ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وخلفه وأمامه حتى يقول واجعلني نورا فسأل ربه تبارك وتعالى أن يجعل النور في ذراته الظاهرة والباطنة وأن يجعله محيطا به من جميع جهاته وأن يجعل ذاته وجملته نورا فدين الله عز و جل نور وكتابه نور ورسوله نور وداره التي أعدها لأوليائه نور يتلألأ وهو تبارك وتعالى نور السماوات والأرض ومن أسمائه النور وأشرقت الظلمات لنور وجهه وفي دعاء النبي صلى الله عليه و سلم يوم الطائف [ أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علي غضبك أو ينزل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك ]([[7]](#footnote-7))([[8]](#footnote-8))

الدعاء .................................

1. - تفسير المنار (1/ 143) [↑](#footnote-ref-1)
2. - قال الشيخ عبد القادر الأرناؤوط في تحقيقه لكتاب المناوي: رواه الطبراني في الكبير "10363". وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد "8/ 63 " وقال: رواه الطبراني، وفيه عبد الرحمن بن إسحاق الواسطي ضعيف. [↑](#footnote-ref-2)
3. -صحيح البخاري (1/ 20). [↑](#footnote-ref-3)
4. -[مناقب الإمام أحمد ص255] [↑](#footnote-ref-4)
5. -( نزهة المجالس ومنتخب النفائس, للصفوري صـ 7 ). [↑](#footnote-ref-5)
6. - في ظلال القرآن (6/ 230، بترقيم الشاملة آليا) [↑](#footnote-ref-6)
7. - مختصر السيرة" لابن هشام (1/420) ، وقال شيخ الإسلام: رواه الطبراني وغيره، انظر: "مجموع الفتاوى" (6/387 [↑](#footnote-ref-7)
8. - الوابل الصيب (ص: 72) [↑](#footnote-ref-8)